

العمود

كتابة
منى علي عبد الجليل

قصة قصيرة

العمود

منى علي عبد الجليل

جميع الحقوق محفوظة © منى علي عبد الجليل

حكى لي أخي ذات يوم أنه قرر أن ينام مبكرًا علي غير عاداته.

أطفأ الأنوار، وأغلق الباب والنافذة، ثم تمدد في سريره.

بعد دقائق، بدأ يشعر بتلك الحالة الملتبسة التي تسبق النوم؛ وعيٌّ

خفيف يطفو فوق جسدٍ أثقله النعاس. فهو لم يكن نائمًا بعد، لكنه

في ذلك السكون. لم يعد يقظًا تمامًا.

سمع صوتًا...

تصفيقة واحدة.

لم تكن عالية، لكنها كانت محددة بما يكفي لتفصل اللحظة إلى ما

قبلها وما بعدها.

فتح عينيه. الظلام كما هو... لا شيء تغير.

أغمضهما مرة أخرى، محاولاً تجاهل الأمر.

هذه المرة لم يعد يقترب من النوم؛ كان مستلقياً فقط، منتبهاً لكل

تفصيلة صغيرة: صوت أنفاسه، احتكاك الغطاء و الفراغ الممتد في

الغرفة.

ثم جاء الصوت، من جهة قدميه، لم يكن همساً، ولا صوتاً كاملاً

يمكن الإمساك به.

شيء بين الاثنين...

ظل ثابتاً في مكانه.. لم يفتح عينيه.

قال إنه لم يجرؤ..

سألته: ماذا كان يقول؟

هزّ رأسه: لا أتذكر.

قلت: إذن كيف عرفت ما كان؟

سكت لحظة، ثم قال بنبرة لم اعتدها منه:

لم أعرف ما قاله... لكنني عرفت من الذي كان يتكلم. إن

وجوده لا يمكن تجاهله أو الخلط بينه وبين أي وجودٍ آخر.

وجوده لا يشبه أي وجودٍ آخر..

نظرت إليه، منتظرة.

فقال:

كان الشيطان.

هذا ما تذكّرتُه وأنا أحدّق في عمود الإنارة، يرتعش ضوءه فوق أحد الأرصفة.

في شارع جانبي قريب من منزلي، اعتدتُ التمشّي فيه هربًا من ضوضاء السيارات علي الشارع الرئيسي. لم يكن واسعًا، لكنه كان طويلًا بما يكفي ليمنحك شعورًا بالعزلة و الهدوء.

على جانبه، اصطفت مبانٍ سكنية متشابهة، وأمامها ركنت السيارات في أماكنها، كأنها لم تتحرك منذ زمن.

لم تكن الإضاءة ساطعة، لكنها لم تترك الشارع غارقاً في الظلام؛
فقد كانت بعض المحلات الصغيرة ما تزال مفتوحة، تبث ضوءاً
خافتاً وحياءً بالكاد تُرى.

لم يكن هناك الكثير. مبانٍ صامتة، سيارات ساكنة... وعمود
الإنارة.

وعلى الرغم من تلك الأجواء، كانت ليلة صيفية بنسيم لطيف،
لكن إحساس النسيم تغير حين نظرت إلى ذلك العمود؛ لا أعرف
كيف أصفه، لكنه كان شعوراً خفيفاً بالضيق، فقلت في نفسي إن
السبب ربما أنني لا أحب الصيف أصلاً، فنفضت الفكرة عن رأسي
واستمررت في طريقي.

كعاديّ أمشي بخطوات سريعة، لكن في تلك الليلة أبطأت قليلاً،
وبدأت أراقب المحلات الصغيرة وما بداخلها؛ لم يكن هناك زبائن،
و المكان كله في حالة انتظار صامت، وحتى كلاب الشوارع لم أرَ
واحدًا منها رغم أنني اعتدت وجودها في هذا الطريق.

ولسبب لا أفهمه، كلما تقدمت خطوة بدا الطريق أطول.

أرى الصيدلية في نهاية الشارع لكنني أمشي ولا أصل، فهل هي
مخيلتي؟ هل أثرت في قصة أخي أكثر مما يجب؟ أم أنني فقط أمشي
ببطء زائد؟

لم أكن أعرف، لكنني استمررت في المشي.

ومع ذلك بدأ الهدوء يبدو محببًا بشكل غريب، رغم أنها ليست
المرّة الأولى التي أمّرّ فيها من هذا الشارع ثم توقفت والتفتُ خلفي
فلم أجد أحدًا، ولا مخلوقًا واحدًا. حتى ذلك القط الذي اعتدت
رؤيته دائمًا عند الأرصفة، يبحث عن طعام أو لمسة إنسان، لم يكن
موجودًا.

أخذت نفسي عميقًا وقررت أن أشغل نفسي بهاتفني أثناء المشي،
لكنني حين تحسست جيبي تذكرت أنني تركته في المنزل، رغبةً مني
في الانفصال قليلًا عن العالم الرقمي.

توقفت قليلا....

ثم اكملت السير.

و لاحظت أن ذلك العمود هو الوحيد المضاء في الشارع، وكلما تقدمت في السير زادت المسافة إلى نهاية الطريق. وللحظة شعرت أنه يتحرك معي؛ كلما رفعت عيني بطرفها بدا على يميني كما كان، كأني لم أبرح مكاني قط رغم أنني أمشي منذ وقت لا أعرفه—ربما نصف ساعة أو ساعة، مع أنني في العادة أصل إلى نهاية الشارع في ربع ساعة فقط.

و حين نظرت إليه مباشرة، أدركت أنه ما زال على نفس مستوى
خطواتي.

و فجأة بدا الشارع ساكنًا على نحو غير طبيعي. لم أعد أسمع
النسيم وهو يتحرك بين الأشجار على جانبي الرصيف، وجف
حلقي، وارتجف جسدي بعرق بارد. راودتني رغبة في البكاء، لكنني
لم أفعل.

فقط استمررت في المشي..

ثقلت خطواتي فجأة، فخفضت سرعتي ونظرت إلى الأرض، ولم أعد
أسمع شيئًا سوى وقع خطواتي على الإسفلت... ومع ذلك، كان
العمود ما زال يتبعني.

رفعت رأسي، فوجدت فتاة صغيرة على مسافة بعيدة أمامي.

توقفت للحظة، ثم قررت أن أقرب منها رغم قلقي.

لكنها تحركت في اللحظة نفسها التي تحركت فيها، وكأنها تعكسني.

وضعت يدي على جيبني أتحمس العرق وأنا أتجه نحوها، ففعلت

الشيء نفسه. ظننت في البداية أنها صدفة... أو أي شيء آخر

يمكن تفسيره. لكن حين وضعت يدي على فمي في قلق، كررت

الحركة بدقة مرعبة، حتى ارتجف جسدي مع حركاتها.

عندها تجمدت مكاني..

لكن بعد لحظات... شيء ما دفعني إلى الاستمرار في السير

نحوها.

فبدأتُ أخطو ببطءٍ في بادئ الأمر، ففعلتُ هي كما فعلتُ أنا.
فقررتُ أن أُسرِعَ في خطواتي، وكان بداخلي شيءٌ يريد أن ينتهي
هذا الأمر؛ شيءٌ يقول لي: "هيا، لُنسِرِع، وأيًّا كانت النتيجة
فالهدف هو الوصول."

ولكن الوصول إلى أين؟ وإلى ماذا؟

مهما مشيتُ، لا أصل إلى نهاية الشارع الذي اعتدتُ السير فيه،
ووصلتُ إلى نهايته وما بعدها مرارًا. أصبح ذلك أمرًا صعبًا، بل
يكاد يكون مستحيلًا.

على أي حال، أسرعتُ في مشيتي حتى تحولتُ إلى الهرولة، وفعلتُ
هي الشيء نفسه. صوبتُ نظري نحوها، لكن عيني خدعتاني

للحظة؛ فنظرتُ إلى الأرض، فوجدتُ أن خيالي لم يعد خيالي، بل
أصبح أضخم، تعلو رأسه أشياء تشبه القرون.

أشحتُ بنظري، ثم توجهتُ إلى الفتاة مرةً أخرى، ولا أدري لم
قررتُ في تلك اللحظة أن أعدو نحوها.

لم يدم الأمر سوى جزءٍ من الثانية... أشحتُ بنظري عنها، ولا
أذكر حتى إلى ماذا نظرتُ، لكننا وجدنا أنفسنا وجهًا لوجه.

لم تكن الفتاة الصغيرة التي رأيتهَا منذ بضع دقائق، بل كانت
شخصًا... يشبهني تمامًا.

حدّقتُ إليّ بالذهول نفسه الذي شعرتُ به لحظةً لقائنا، وظللنا
نرمقُ أحدهنا الآخر، نتحرك ببطءٍ حول بعضنا، كأن كلاً منا يخشى
أن يمنح الآخر ظهره.

توقفتُ هي فجأة، فتوقفتُ بدوري. نظرتُ إليّ من دون أن تنطق
بكلمة، ولاحظتُ سلسلةً صغيرةً تتدلّى من عنقها، تتأرجح في
هدوء، وتتدلّى منها دائرةٌ فضيئةٌ صغيرةٌ يتوسطها مكعبٌ أزرق.

وقفنا قليلاً نتفحّص ملامح بعضنا من دون حراك، ثم تركتني
ومضت...

لم أستدر لأرى إلى أين ذهبت؛ خفتُ أن تقع عيناى على شيءٍ
آخر لا أحتمل رؤيته.

بعد مرور شبيھتي، التي لا أعرف من تكون، أو إن كانت هي أنا
أم أنا هي، شعرتُ بإحساسٍ يشبه النعاس... وربما الانتشاء. لا
أعرف كيف أصفه بدقة، لكن إحساسًا غريبًا راودني بأنني أصبحتُ
جزءًا من هذا الطريق، ومن تلك الدائرة التي لا تنتهي.

..

لحظة..

الخ !

لا اعرف لم اصبحت اشرد في افكاري الي هذا الحد البغيض, الي
الحد الذي جعلني اسلك شارعاً غير الشارع الذي اعتدت المشي
فيه.

الآن.. لا الوم العفاريت او ايا كان ما امر به..

فأنا الدخيلة.

ظلّ العمود يرافقي أينما سرت؛ كلما التفتُ وجدته في الموضع
نفسه إلى جوارِي. غير أن شيئاً آخر ظهر هذه المرة بجانبه: بابٌ
مغلق، معلق في منتصف الفراغ، يرتفع قليلاً عن مستوى الأرض،
بلا جدارٍ يسنده أو شيءٍ يحيط به...

مجرد باب.

و لطالما خشيتُ الأبواب المغلقة. فأنا لا أحب معرفة ما يختبئ
خلفها، خاصةً حين لا أكون أنا من أوصدها. لكن الطريق الممتد

بلا نهاية، وذلك المكان الذي لم يعد يشبه اي شارع اعرفه، دفعاني
إلى النظر إلى الباب كـمخرج وحيد.

كنتُ قد مشيتُ لوقتٍ طويلٍ؛ ساعةً أو ساعتين ربما، حتى فقدتُ
الإحساس بالزمن. ومع كل خطوة، ازداد اقتناعي بأنني لن أصل إلى
النهاية أبداً، لذلك بدا الباب، رغم غرابته، أقربَ إلى الخلاص.

مددتُ يدي نحوه بتردد. للحظةٍ فكرتُ في التراجع، لكن أصابعي
أطبقت على المقبض بثقة، كأن اليد التي تحركت اصبحت عضواً
منفصلاً عني..

استدار المقبض ببطءٍ بين كفي... وانفتح الباب.

أدخلتُ رأسي بحذرٍ أتفقد ما خلفه، فلم أرَ سوى ظلامٍ خافت
تسلل داخله إضاءة باهتة. رغم ذلك، دفعتني رغبةٌ غامضة إلى
الدخول.

ما إن وطئتُ الأرض في الداخل حتى لفحني هواءٌ بارد تفوح منه
رائحةُ الرطوبة والحجر القديم، وبدأت ملامح المكان تتكشف
تدرجياً أمامي.

بدا كهفًا هائلًا عالي السقف، لا يشبه المغاور الضيقة التي تُحاصر
الأنفاس، بل فراغًا صخريًا متراميًا يمتد في العتمة كأنه جوف جبلٍ
كامل. كانت ألسنةُ اللهب تتراقص فوق مشاعلٍ مثبتةٍ على امتداد
الجدران البعيدة، ناشرةً ضوءًا مرتعشًا يجعل الظلال تتحرك

باستمرار، فتبدو الصخور كأنها تتنفس أو تترقب لحظةً لتتحرك.
تقدمتُ ببطءٍ، يتردد وقع خطواتي في الاتساع الموحش، بينما أخذ
بصري يتجول بين التكوينات الصخرية الهائلة المنتشرة في أرجاء
الكهف. وفي العمق، ارتفع أمامي ما ظننته أول الأمر جزءًا من
الجبل نفسه؛ كتلةً صخريةً ضخمةً خشنة الملامح. لكن كلما
أمعنتُ النظر، بدأت تتكشف هيئةً كائنٍ هائلٍ ذي ملامح
شيطانية، كأن الصخر قد التف حول جسدٍ عظيمٍ ثم تصلب فوقه
عبر زمنٍ لا يُحصى، محتفظًا بتفاصيله في سكونٍ مرعب.
جال بصري في المكان، أتفحص كل ركنٍ فيه علني أجد مخرجًا.
مشيتُ بحذر متجنبًا النظر إلى ذلك الجسم الصخري الضخم، إذ

راودني شعورٌ بأنه يتتبع كل حركةٍ أقوم بها.

وأثناء سيرِي، لمحتُ من بعيد إنساناً... إنسان؟!!

اقتربتُ ببطءٍ حتى بدأت تتضح ملامح هيئته؛ كان يرتدي رداءً

أحمر طويلاً ينسدل حتى قدميه، تعلوه عباءة واسعة من نفس اللون

ذات طياتٍ ثقيلة، وعلى رأسه غطاءً قماشِي التف حوله إكليلٌ

من أوراق الغار. بدت هيئته مهيبه، أقرب إلى هيئة الحكماء أو

الشعراء القدامى.

التفت نحوي فجأة، وثبتت عيناه عليّ بنظرة باردة جعلت الدم

يتجمد في عروقي. ثم رفع يده مشيراً نحو ذلك الجسم الضخم،

بينما ظل واقفاً في مكانه بملامح ساكنة، ينتظر ما سيحدث.

في اللحظة التالية، بدأ الصخر المحيط بالكائن يتشقق ويتفتت،
واهتز الكهف بعنفٍ حتى حُيِّل إليّ أن أعماقه تتداعى. تراجعتُ
خطوةً دون وعي، وانقبض صدري وأنا أهدق في تلك الكتلة
الهائلة.

حينها أدركتُ أن ذلك الكائن الشيطاني لم يكن منحوتاً في الصخر
كما ظننت، بل متحجراً داخله. رأيتُ القشرة الحجرية تنفصل عن
جسده شيئاً فشيئاً، ومخلوقٌ دُفن منذ عصور ينهض أخيراً من
سباته.

جريتُ مذعورةً أبحث عن بابٍ أو أي مخرج قبل أن يستيقظ ذلك
الشيء، لكن الأرض انهارت فجأة تحت قدمي، فسقطتُ في ظلامٍ

دامس.

اختفى كل شيء من حولي، ولم تعد قدماي تلامسان أيّ سطح،

وبدوت معلقةً في الهواء.

لا أسمع شيئاً... فقط أسقط في صمتٍ مطبق.

وفجأة ارتطم جسدي بالأرض...

شهقتُ بعنفٍ وفتحتُ عينيّ، لأجد نفسي مستلقيةً على الإسفلت

البارد. كان الشارع أمامي؛ المباني ذاتها، والسيارات المصطفة في

أماكنها، وضوء المحلات الخافت الممتد على الأرصفة..

رفعتُ رأسي ببطءٍ، ألهثُ محاولةً استيعاب ما حدث.

هل كنتُ أحلم؟

تحسستُ ذراعي ووجهي في اضطراب، ثم نهضتُ مترنحة. كان كل

شيءٍ طبيعيًا على نحوٍ غريب، حتى الهواء عاد يتحرك من جديد،

يحمل معه أصواتًا بعيدة لسياراتٍ في الشارع الرئيسي.

ظلمتُ واقفةً لثوانٍ أحرق حولي، قبل أن تقع عيناي على شخصٍ

يقف في أول الطريق.

تجمدتُ مكاني لحظة... ثم اندفعتُ نحوه دون تفكير.

كانت امرأة.

ومع اقترابي أكثر، بدأت ملامحها تتضح تحت ضوء عمود الإنارة.

أمي ؟

شعرتُ بشيءٍ ينهار داخلي من شدة الارتياح، وأسرعتُ نحوها،

ألهث وأنا أكاد أبكي. وفي اللحظة نفسها، بدأت هي الأخرى

تركض نحوي بالسرعة ذاتها.

لكن كلما اقتربتُ، بدأ شيءٌ ما يبدو خاطئًا.

كانت خطواتها تشبه خطواتي أكثر مما ينبغي.

وهيئتها... مألوفة أكثر من اللازم.

تباطأتُ تدريجيًا، بينما استمرت هي في الاقتراب، حتى أصبحتُ
أرى وجهها بوضوح.

حينها توقف كل شيء بداخلي...

لم تكن أُمي...

كانت فتاةً تشبهنى تمامًا. وقفنا متقابلتين في منتصف الشارع،

نحدق في بعضنا بذهولٍ كامل. تحركتُ هي ببطء، وعيناها مثبتتان

على شيءٍ عند عنقي.

عبستُ في ارتباك، ثم رفعتُ يدي أتحمس رقبتني.

عندها لامست أصابعي سلسلةً باردة..

أنزلتها أمام عينيّ ببطء؛ دائرةً فضية صغيرة يتوسطها مكعبٌ أزرق.

رفعتُ بصري إليها مرةً أخرى، فوجدتها تحديق إليّ بالرعب نفسه

الذي اجتاحني.

تمت

